هذا الشعر وتلك القصة

بقلم : عبد الرحمن حمادي

« ـ وكيف تسمونه باباً للنتاج الجديد ، ثم لا أراك تتناول فيه إلا أعمالاً ليست بالجديدة بحجة أن الإبداع لا تذهب قيمته وجدّته ؟!

قلت : وكيف ترى الجديد ؟!

قال : الجديد هو وليد يومه أو شهره ، ترميه المطابع للأسواق ، وما أكثر ما ترمي المطابع من كتب للأسواق في أيامنا هذه .

فقلت : وهنا العلّة ، فبقدر ما أكثرت المطابع من نتاجها ، قلّ النتاج الأدبي ، حتى أمسيت تمسك بالكتاب (الجديد) ، فتحسب ألف حساب قبل أن تسميه شعراً أو قصة . . » .

أما الشعر فهو مجموعته (اشربوا هذا دمي)[1] ، أو الميلودراما الشعرية كما أسماها .

مسرح شعري . . أم . . ؟

في مجموعته (اشربوا هذا دمي) يلفت الدكتور ميشال النظر إلى أنه يطرح شكلاً جديداً للتعامل مع القصيدة الحديثة ، أعني الشكل المسرحي الذي اعتمده ، وليس المقصود هنا المسرح الشعري المعروف ، والذي شهدنا أمثلة له عند صلاح عبد الصبور وسليمان العيسى مثلاً ، بل مسرح من نوع جديد ، هو أقرب للمسرح الفلسفي ، فالشخصيات قبل كل شيء هي رموز يصل بعضها إلى شكل اللامعقولية المطلقة ، مثل :

« ـ امرأة مشيقة واسعة العينين ، مسترسلة الشعر . .

ـ الرجل ـ ١ ـ نصف رجل بيد ورجل بلا رأس

ـ الرجل ـ ٣ ـ رأس بلا جسد

ـ راقصة

ـ راقص . . »

إذن ، نحن أمام أسطورية معظم الشخصيات ، وهذا ما يضعنا في البدء بجوّ لا أسميه مرعباً بقدر ما هو مبهم ، وبالتالي لا يهمّ القاريء بالدرجة الأولى أفعال الشخصيات ، ولكن الذي يهمّ هو أطروحاتها خلال الديوان ، التي هي هموم الشاعر ، وانفعالاته .

ويأتي السؤال :

ما دام ميشال سليمان يريد في الطرح الشعري الوصول إلى ما تقصد إليه القصيدة الحديثة عادة من إثارة الانفعالات واستيعاب الهموم ، والآلامن والآمال . . . الخ ، لماذا اعتمد هذا الشكل المسرحي ؟ ألا يمكن أن يوظف انفعالاته في قصيدة واحدة طويلة بدلا من بعثرتها هكذا ؟!

والجواب يأتي واضحاً إذا ما علمنا أن هذا الشكل الجديد ، أولى حسناته أنه يسمح للشاعر بتجزئة دفقاته الشعرية في لحظة لا تستطيع نفسه الحساسة استيعاب كافة الهموم (الحزن غالباً عند ميشال) ، لذلك ، على لسان محل شخصية ، وفي هيكلية كل حوار مسرحي مفترض ، نحن مع طرح شعري جديد ، وهمّ ورؤية مستقلة .

الغربة ـ الحزن

غربة الشاعر مع عصره ، وإحساسه بالتفرّد ، وأنه بعيد عن كل ما يحيط به ، أصبح شيئاً معروفاً لدى معظم شعرائنا في العصر الحديث ، بالشاعر « صار يدخل في معركة دائمة مع ذاته ، يؤلمه ابتعادها ووحدتها ، لكنه في النهاية لا يجد إلا أن يقرّ بغربته ووحدته ، وأن يتعامل مع الأشياء من خلال هذه النظرة »[2] هذه الغربة ربما كنا نلحظها عند ميشال سليمان بمفارقة مجسدة ومجسمة ، إنه حزين منذ البداية ، ووحيد ومتفرّد :

« أفيق مع الموج
هل تحمل الريح مفتاح باب السكون
النجوم المعلقة الأعين الحمر في جنبات المدار
تفصّل أثواب عرسي بحجم الحرائق
والأوجه المستباحة من همسات الظنون
تشدُّ اللثام . . »

لنلاحظ الغربة المزروعة في هذا المقطع ، بل لنلاحظ ذلك بشكل أكثر بروزاً عندما يصير الكلّ في منظاره مدعاة للظنون والهواجس :

« أنقل خطوي في عدسات الجواسيس
أرقب كل الظلال النشاوى بدمع الزوايا الكئيبة
والأذرع الحانيات على نكبات الشوارع
تلقي صدى أغنياتي المبللة الواقع بالهاجس المرّ
يملي عليَّ رقيم الجنون »

فالشوارع والزوايا والظلال . . . كلها أشياء تصبح مادة لتجسيد غربته ووحدته إن إحساس الغربة غالباً ما يأتيه في لحظات استيقاظه ، وكأنه يحمل همّ مجابهة العالم طوال يوم كامل آت :

« أفيق
وتغري بي النوم عسعسة الليل
أجنح غربان
إقتحمي يا شواهد كل القبور
الدروب البطيئة
وامحي سطور التصوّف »

حتى إذا خرج لمجابهة العالم خرج وهو يحسب حساباً لكل شيء ، وبنظرة حذر تصل إلى حدّ التشاؤم غالباً ، وعدم الثقة بالناس :

« أفقت وفي أذني دبيب النهار

وفي شفتيّ سباب تعفّنَ
ضحك تغضّن
لا تلمسوها جلود التماسيح »

وكيف يثق الشاعر الحساس المرهف بالعالم ؟

إن كل شيء فيه يدعو للريبة ، فقد تأمله وعايشه وخبره طويلاً ، وفي النهاية لم يجد إلا ما يدعو للتشاؤم ، فالقتل هو المبدأ ، والجثث البريئة مطروحة أمامه ، والأجساد المشوّهة واضحة لعينيه ، وها هو ذا الموت يرفرف فوق كل شيء ، ويزرع الخوف في أجساد الصبايا والأطفال :

« دسّوا أصابعكم في الجيوب
وتحت جلود الجباه الصبيية خزي
فرائحة الجثث الأبرياء . . الكسيحة
تزحم أنف السماء المباحة
والريح في فيلق من وجوه
تفرُّ لكي لا تدنّسها رؤية الموت »

والناس كلهم فقدوا القيم التي يطمح إليها الشاعر ، إنهم سفهاء ، ووقحون ، ومزايدون على المباديء والأخلاق :

« وفي ساحتي والشوارع ألف من الخالعين العذار
وألف من السفهاء الوقاح
وألف من النابحين على الشمس
يلقون حدّ المناشير . . ».

ولكن هل نقبل من الشاعر تفرّده هذا ؟!

إن تفرّد الشاعر وحزنه شيئان محببان إلينا دائماً ، إذا كان سيصبان في النهاية بدائرة همومنا ، ولأن إحساس الشاعر المرهف لا يتجسد في روعته إلا في لحظات الوجد هذه ، والتفرد والحزن يمنحانه فسحة واسعة للتأمل ، تعطي هذه الفسحة لنا نحن أن نستقريء همومنا ، ونلمس استثارة انفعالاتنا .

الأمـــل :

أو لنقل الرفض لمعطيات الواقع القاتم الذي لمسناه عن طريق الشاعر قبل قليل ، صحيح أنه متفرّد ومتشائم وحزين ، ولكن من هذه الأقانيم الثلاثة يطرح لنا رفضه لأسبابها ، وبالتالي للواقع كله ، وتلك روعته .

ها هي ذي آلامه يعبُّ منها ، ولكن مع هذه الآلام يطمح لمستقبل مشرق ، لا يراه آتياً إلا عن طريق رفض آلامه :

« سأبقى أعدّ جراحي
وأشرب منها إلى أن تفيق الجذور
وتطلع مني
أصابع لحن يمارس شرب الجنوح »

وهو رغم كل شيء يعرف أن خلاصاً سيأتي ، لهذا نراه في لحظات كثيرة يرتقي إلى قمّة التفاؤل ويصرخ :

« ليت علمتم بأن الدجى خادع والصباح وشيك
ومن ذا سواي يدجن زحف الحرائق والريح
بين الشوارع والأرصفة ؟ »

بل ينذر بأن الخلاص قد بدأ فعلاً ، فهو قرر أن يبدأ برفض جراحه وصولاً لرفض الآخرين جراحهم :

« ولو علموا أيقنع أن جرحي الكيان
وفي خاطري أن أضمّده الآن »

هذه هي بعض مضامين الميلودراما الشعرية التي طرحها الدكتور الشاعر ميشال سليمان . ولا شك أن استقراء مضامينه كلها يحتاج إلى وقفات طويلة .

نواح أخرى :

في (اشربوا هذا دمي) نلمس بوضوح تناقضات الإنسان ، فميشال لا يعرض الطبيعة الإنسانية عرضاً عاماً جامداً مشذباً ، إن أبطاله ممتلئة نفوسهم بالانفعالات والمشاعر في كافة أشكالها ، إنه لا يظهر بطولات الإنسان فقط وتطلعه إلى ما هو خير وجميل ، بل يرينا الجمال والقبح في جميع مظاهرهما وآثارهما :

« عاهرة باعدت بفخذٍ ظلال خطاها
وألقت بفخذ على سرّة الليل »

وهذا جيد في الشكل المسرحي الميلودرامي الذي اعتمده الشاعر ، والمسرح (الشعري خاصة) يطرح مسألة انشاء مسرح جديد يختلف جذرياً عن كافة أشكال المسرح المعروفة « فما يجدر بنا أن نعرفه في المسرح ليس ما فعله هذا الإنسان أو ذاك ، وإنما ماذا يفعل إنسان له طبيعة محددة في ظروف معينة »[٣] .

من ناحية أخرى يعود ميشال إلى ما يشبه تطبيق (نظرية اللعب) التي قال بها شيللر منذ ما يقرب القرنين[٤] ، وفي هذه النظرية نلمح أن « التجسيد الفني مستقل عن ذوق الواقع وتقاليده ، إنه مرتبط بالمشاعر والأفكار ، ولكنه لا ينطبق عليها في زيفها ، بل ينطبق عليها في طموحها »[٥] ، وهكذا كان شعر ميشال ، أقل ما يقال فيه أنه جسّد المشاعر في طموحها :

« . . اشيحوا حديث التصوّر في الوهم عن ناظري
وهاتوا خرائط شكل
تعرّش في جانبيه وفوق حواشيه
كل الغصون التي تعشق وجه الكآبة »

ويبقى القول إلى أن (اشربوا هذا دمي) شعر ارتفع بالصور الشعرية الرائعة والتي جعلت هذا الشعر متكاملاً يرسخ صاحبه تجربة طويلة ، ومميزة في شعرنا الحديث .

هذا هو الشعر ، وأما القصة ، فالوعد أن نقرأ فيها مطوّلاً بالعدد القادم وعبر مجموعتين هما (الرجال الخطرون)[٦] لياسين رفاعيه ، و (الكوابيس)[٧] لعادل حديدي .

- بيروت -

هوامش ومصادر

١ - دار القلم - بيروت ١٩٧٨ - الطبعة الأولى .
٢ - الوردة الذهبية في صياغة الأدب - بوستوفسكي - دار النشر الوطنية - دمشق - بدون تاريخ .
٣ - نظريات ومذاهب اجتماعية - د. السيد محمد بدوي - دار المعارف بمصر - ١٩٦٩ .